الواجب مقامات

تحدثت إلى حضراتكم فى مقال سابق عن الحقوق والواجبات .

وكانت خلاصة الحديث أن الناس فى عصرنا هذا يفكرون فى حقوقهم كثيرًا ، ولا يفكرون فى واجباتهم إلا أقل من القليل . مع أن القيام بالواجبات هو السبيل الوحيد إلى إعطاء الحقوق . لأن حق الإنسان لا يضيع فى أمة يؤدى كل فرد منها واجبه المفروض عليه . فإذا قمنا جميعًا بواجباتنا فلندع الحقوق وشأنها لأنها ستأتى إلينا حيث كنا بغير عناء .

حقيقة لا نظنها تحتمل الخلاف الكثير .

ولكن الأمور فى مسألة الواجب لا تجرى دائمًا على هذا النحو من السهولة والجلاء .

لأن الواجب لا يكون فى جميع الأحوال شيئًا واحدًا مفهومًا متفقًا عليه .

ولو كان كذلك لهان أمره على كل راغب فيه .

ولكن المرء كثيرًا ما يرى نفسه أمام واجبات متعددة متناقضة يجمع بينها بصعوبة شديدة ، أو يفرق بينها بصعوبة شديدة .

وكلها واجبات مفروضة عليه ولابد له من أدائها جميعًا ، أو تركها جميعًا ، أو الاختيار منها بين ما يؤديه وما يتركه ... وكل حالة من هذه الحالات جهد جهيد .

كذلك يرى الإنسان نفسه فى بعض الأحايين أمام واجب مبهم مشكوك فيه ، لا يدرى كيف يؤديه ، ولا يدرى كيف يتركه وهو مستريح الضمير .

أما الواجبات المتعددة فالأمثلة عليها كثيرة ، نكتفى بالإشارة إليها ولا نحصيها .

فهناك الواجبات الكبيرة والواجبات الصغيرة : واجبات تتعلق بها مصلحة الأمة أو العالم ، وواجبات لا تتناول إلا مصلحة فرد أو أفراد .

وهناك الواجب المعجل والواجب المؤجل ، أو الذى يقبل التأجيل . وقد يصطدم هذا بالواجبات الكبرى فى بعض الحالات ، فإن إنقاذ فرد واحد من الموت العاجل عمل ينفع فردًا واحدا أو ينفع ذويه . ولكنه قد يقدم على الواجب الكبير الذى يمكن تأجيله إلى حين ، وإن تعلقت به مصلحة أجيال .

وهناك الواجب الظاهر والواجب الخفى المحجوب عمن لا يعرفونه . وفى القرآن الكريم مثل قوى على هذين الواجبين كما يفهمهما نبيان صالحان فضلاً عما يفهمه سواد الناس . وقد سمعتم سورة الكهف مرات وسمعتم أن موسى الكليم عتب على

الخضر عليهما السلام لأنه خرق سفينة وقتل غلامًا وأقام جدارًا لقوم بخلاء لا يستحقون المعونة . فقال له الخضر : « هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحًا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرًا » .

وفى هذه الآيات الكريمة عظة بالغة لمن يريد أن يتعظ بها فى حوادث الدنيا المستغربة من كبيرة وصغيرة . فإن كثيرًا من الناس يلامون وهم معذورون ، بل مستحقون للحمد والإعجاب ، لأنهم يعملون الواجب ويكتمونه . تفضيلاً للسكوت الذى يجلب لهم اللوم على التصريح الذى يجلب لهم الثناء .

وهناك الواجبات الخاصة والواجبات العامة . فليس الواجب الذى ينهض به الأكفاء دون غيرهم كالواجب الذى ينهض به كل فرد من الأفراد أو ينهض به معظم الأفراد ، وليس الواجب الذى ينتظر أهله القادرين عليه ، كالواجب الذى يقدر عليه من شاء حيث شاء .

وهناك الواجب المحمود والواجب المكروه ، فقد يوافق الواجب هوى الناس فيحمدونه ويعرفون فضله ، وقد يناقض هوى الناس فيكرهون صاحبه ويعطلون عمله ، وهو فى الواقع أعظم من صاحب الواجب المحمود وأولى منه بالإعانة والتقدير .

هذه أمثلة نشير إليها ولا نحصيها كما أسلفنا ، ومنها نرى أن الإنسان قد تواجهه فى حياته الخاصة أو العامة واجبات متناقضة لا محيص له من التوفيق بينها . فكيف نطالبه بالواجب إذا كان الواجب نفسه يأمره بما لا يطاع ، لأنه يأمره بما لا يستطاع ؟.

فى الأمر علة لمن يريد التعلل ، وعذر لمن يريد الخلاص من جميع الواجبات .

إلا أنه تعلل معيب مكشوف السريرة ، لأن الإنسان إذا تناقضت منافعه وشهواته لم يتركها جميعًا ولم ينفض يديه منها بأشباه هذه المعاذير . فلماذا يحتمل التناقض فى الشهوات ولا يحتمل التناقض فى الواجبات ؟ ولماذا يريح نفسه من التوفيق هنا ولا يريح نفسه من التوفيق هناك ؟

والواقع أننا نعرف المشكلة لنقول إنها مشكلة يجب ألا تخفى علينا ، وإننا إذا عرفناها عرفنا أنها محلولة بطبيعتها ، لأنها لا تواجه إلا من هو قادر على حلها أو التصرف فيها .

فالواجبات فى الحياة الإنسانية على قدر أصحابها والمسئولين عنها ، ولن يكلف الله نفسًا إلا وسعها .

والواجبات الشائعة لها ملكات شائعة بين الناس تعينهم على أدائها ، وهى فى الغالب سلبية تتلخص فى الكف عن الأذى والامتناع عن العدوان على الأرواح والأعراض والأموال ، وما كان منها إيجابيًّا فهو لا يزيد على أن يحسن الإنسان عمله الذى بين يديه ، ولا خفاء بالوسيلة التى تعين على إحسان الأعمال .

فالواجبات درجات .

والناس كذلك درجات .

والكبير هو الذى يحسن النهوض بالواجب الكبير ، أو يقضى ما يقضى ويترك ما يترك ، وهو مستريح الضمير .

واختلاف الدرجات فى العلم ، واختلاف الدرجات فى الاجتهاد ، واختلاف الدرجات فى الرزق والمعاش من الحقائق الكثيرة التى تكررت فى القرآن الكريم .

(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

(وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم) .

(لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) .

(نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) .

وهى آيات بينات ، مصداقها ظاهر كل يوم بل كل لحظة ، فى كل فج من فجاج الحياة .

إن حمل الأثقال رياضة الأقوياء بالأجسام .

وكذلك حمل الفروض الجسام رياضة الأقوياء بالنفوس ، ولعلهم يفرحون بالقدرة على مشكلاتها كما يفرح الرياضى الضليع باستخفاف الأعباء الثقال .

يفرح الضعيف بالإعفاء ، ويفرح القوى بمضاعفة الأعباء . فليحمل كل منهما ما يستطيعه ، لا فوق ما يستطيع ولا دون ما يستطيع . ومن أبرأ ذمته فلا جناح عليه .

وتعجبنى أبيات جميلة للشاعرة الأمريكية « الن هوبر » تقول فيها : نمت فحلمت بأن الحياة جمال ، وصحوت فرأيت أن الحياة واجب وجهاد . أكانت رؤياى إذن أكذوبة من أكاذيب الظلال والأطياف ؟ .. كلا . بل جهادًا أيها القلب الحزين وشجاعة فى الجهاد . وإنك لعلى يقين أنك واجد ذلك الحلم حقيقة ماثلة لك فى ضياء النهار .. » .

وشاعرنا الكبير - أبو الطيب - يسبق إلى هذه الحقيقة بأسلوبه الفحل حيث يقول :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظائم

فإذا شكا الأقوياء من الواجب الكبير فعزاؤهم أنهم أقوياء ، وإذا شكا الضعفاء من الضعف فعزاؤهم أنهم قليلو الأعباء .

والواجب مقامات .

والناس كذلك مقامات .

(نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) .

(صدق الكتاب الكريم)